ألفاظ موسيقية رومانثية ذات أصل عربي

لمستر ادوارد إسبانى هوليان ريبيرا
ترجمة الكتور الطاهر أحمد مكى

تمهيد

طبيعة الاتصال بين شعب وآخر ، أو بين مجموعة مختلفة من الشعوب ، مجال التأثير المتبادل بينهما وطرائقه ، وإذا كان كل واحد منهما يتحدث لغة مختلفة عن البقية تحدث ظاهرة انتقال لفظ من لغة إلى أخرى وفى هذا المجال فإن التأثير يمضى من الأعلى إلى الأدنى ، وينطلق ممن يملك ثقافة أرفع وأقوى . وتنم الألفاظ المهاجرة عن تقدم الموضوعات التى تدل عليها فى اللغة التى هاجرت منها ، ويحدث الشىء نفسه مع النظم السياسية ، والتقاليد الاجتماعية والمهارات التقنية ، والفنون والعلوم وغيرها .

وكان على إسبانيا ، بحكم موقعها الجغرافى ، أن تعانى العديد من التأثيرات وكلها تعلن عن نفسها فى لغتها المعاصرة . وإذا كانت الرومانثية[1] لغتها من قديم فإن تأثير اللاتينية يبدو فيها أشد وضوحا من أية لغة أخرى ، ومع ذلك فقد اقتحمت ألفاظ عربية كثيرة حدود الرومانثية وفرضت نفسها : إن التحدث باللغة العربية فى شبه جزيرة إيبيريا على امتداد قرون عديدة لم يذهب عبثا .

وحجم الألفاظ العربية التى دخلت لغتنا الرومانثية ، ودلالاتها ، يحدد المجال الذى مارس فيه التأثير دوره . ففى مجال النظم السياسية والحربية نجد كلمات : القاضى alcalde وصاحب المدينة zalmedina والمحتسب al motacén والوزير alguacil والقائد alcaide والدليل adalid وغيرها .

وفى مجال المعاملات التجارية نجد الألفاظ : تعريفة tarifa ، والفندق alhondiga(٢) والقيسرية alcaiceria ، وغيرها . وفى المقاييس نلتقى بألفاظ : خروبة arroba والرطل arrelde ، وثمن tomin ، وألفاظ أخرى . وفى النقود نجد : مثقال

---

(١) يطلق لفظ رومانث Romance فى الأسبانية على كل اللهجات التى تفرعت عن اللاتينية ، كالإسبانية والفرنسية والبروفنسالية والإيطالية والبرتغالية وغيرها ، قبل أن تستقر قواعدها ، وتثبت وتصبح لغة متصلة (المترجم).

(٢) حرف H كان ينطق فاء F ، فى اللغة الرومانثية فى العصر الوسيط (المترجم)

muzcal . ومرابطى maravidı وغيرها .

وفى الضرائب ألفاظ : القبالة alcabala والفرضة alfarda ، وأسماء غيرها .

وفى المهن : الفخار alfarero والبنّاء albanl ، والعريف alarife والخياط alfayate ، وكلمات أخرى كثيرة .

وفى مجال المعمار تشيع كلمات : القصر alcàzar والطليعة atalaya ، والدرب adarve والمينا almena ، والقبة alcoba والحب aljibe ، وajimez الشمسية[1] وألفاظ أخرى .

ولنا أن نتساءل : هل دخلت لغتنا الرومانثية ألفاظ عربية تتصل بالموسيقا ؟

لم يشر أحد من قبل فى دقة واضحة إلى التأثير الواسع المدى الذى حدث فى هذا المجال ، ومن ثم لم يستوقف نظر كبار العلماء هذا القدر من الألفاظ المتصلة بالموسيقا مع أن دراستها ذات أهمية عظمى ، لما تحمله من دلالات فى انتقالها من العربية إلى الرومانثية ، وأود الآن أن أعرض لبعض منها .

تلعب الظروف دوراً بارزاً فى تحضر بعض الشعوب وتقدمها ،وسبقها بقية الأمم الأخرى ، ثم يدور الفلك دورته ، فيصيبها التخلف . وتعود إلى المؤخرة بعد أن كانت فى المقدمة ، ومن ثم فان التأثير والتأثر يخضع لهذا الدور أيضاً ، فهو ليس وقفاً على أمة بعينها ، والذين كانوا فى مرحلة ما يصدرون ما عندهم ، ويؤثرون فى غيرهم يعودون فى مرحلة أخرى مستوردين ومستقبلين ، أى متأثرين بسواهم ، وهكذا دواليك .

وإذا عدنا إلى الشعب العربى فى عصر النبى (عليه الصلاة والسلام)لم نجده موسيقيا وكان يكره الموسيقا ، إذا لم نقل إنه يعتبرها معصية ، ولكنه وقع فى حبائلها مع الزمن ، وأغرم بها ، واستعار الموسيقا العملية التى كانت تمارس فى فارس وفى الأمبراطورية البيزنطية ، ثم دفع به فضوله العلمى ، وحب المعرفة ، إلى تعريبها عملياً ونظريا ، فترجم تراث الإغريق الموسيقى ونظرياتهم عنه ، ودراساتهم المتصلة بها وتمثلها ، وأخذت تقنية الإغريق الموسيقية طريقها إلى الثقافة الإسلامية الواسعة كجزء منها ، ولدينا من الألفاظ الموسيقية اليونانية المستخدمة فى اللغة العربية كلمات : موسيقا وموسيقى ،وبربط ،والكنارة وكلمات أخرى . إلى جانب أسماء « النوتة » الموسيقية وقواعدها وغيرها . أى أن المسلمين تأثروا فى مجال الموسيقا ،شعبيا وثقافياً، بشعوب العالم القديم التى سبقتهم فى مجال الحضارة .

---

(١) نافذة مزدوجة العقود ، تدخل منها الشمس .

(المترجم)

وبفضل هذه التأثيرات الوافدة بدأت الموسيقا تزدهر على امتداد العالم الإسلامى وبلغت قدرا عاليا من الدقة والإتقان ، على حين أخذت أوربا فى العصر الوسيط طريقها نحو التخلف والتدهور ، لافى مجال الموسيقا فحسب ، وإنما فى بقية ألوان الفنون والعلوم الأخرى ، وبدأت موجة التأثير فى هذه المرة تندفع من البلاد الإسلامية نحو أوربا ، ودخلت الموسيقا المشرقية إسبانيا ، وابتدع الأندلس فى الأغانى نظاماً عبقريا ، شاع فى كل بلاد المعمورة ، وبخاصة فى ممالك شمال الأندلس المسيحية(١).

إن كثرة الألفاظ العربية التى تومئ إلى ظواهر مرتبطة بالموسيقا والحفلات والرقص والآلات الخاصة بها ،وغير ذلك كثير ، واقع بليغ الدلالة ، ولا يزال الشعب الإسبانى حتى يومنا هذا ، يستخدم الكثير من هذه الألفاظ العربية ، التى تعبر عن الحفلات والتجمعات ، مثل : الصريخ alarido الولولة alborbola وزمرة zambra ، وغيرها . ومن أسماء أدوات الموسيقا والغناء : قيثارة guitarra ، والعود Laud ، وشبابة xebaba ، والبوق albogue والنفير anafil والدف adufe ، وغيرها.

وبقيت كلمات أخرى ذات دلالات أكبر ، وتستحق دراسة أشمل ، ووقفة آنية ، ومن بينها كلمة كانت شائعة قديماً واستخدمت على نطاق واسع فى أزمنة أخرى ، ولو أنها هجرت الآن ، وهى :

* الزجال Segrel

عرضت العالمة البرتغالية ، الواسعة الثقافة السيدة كارولينا ميكائيلس C. Michaelis فى كتابها «ديوان أجودة Cancionero de Agudo» ص ٦٤٩ وما بعدها ، أبحاثا تتصل ببعض الشعراء المغنين الذين كانوا ينتشرون فى أعداد كثيرة على بطحاء شبه جزيرة إيبيريا ، ويطلق على الواحد منهم اسم : « الزجال الإسبانى Segrel hispana » وتقول لنا إن هؤلاء الزجالين كانوا يترددون على مختلف أمراء الإقطاع والقلاع ، يطلبون من سادتها الهبات : أموالا ، أو خيلا ، أو سلاحا ، أو رجالا ، أو ملابس ، وأحيانا أقمشة رخيصة ، مقابل الشعر الذى ينشدونه ويتغنون به.وكان هؤلاء الكبار يتطلبون فيهم أن يكونوا فنانين ، صوتهم عميق وجميل ،ويعرفون كيف يقولون ما يبدعون دون أخطاء كثيرة ، ويغنون جيدا أشعارا بهجة ، ليست بالغة الروعة ولا متحذلقة .

كان هؤلاء الشعراء الجوالون يغنون للأمراء ورجال البلاط ، على نحو ما يترنم الريفى بأدوار الزجل ، ويدعون

---

(١) يشير إلى نظام الزجل والموشحات (المترجم)

لأنفسهم لقب الشاعر المنشد Trovador في حين أن الناس يتهمونهم بالبوهيمية والصعلكة ، ويعيرونهم بأنهم ينشدون بأجر ويغنون فى مقابل. وهم يطوفون بكل أنحاء شبه الجزيرة ، من الأطلنطى حتى البحر الأبيض المتوسط ، ومن جبل طارق حتى جبال البرانس ، ويتصلون بالأمراء والسراة فى جليقية ، والبرتغال ، وقشتالة ، ونبرة وأرغون ، وليون ، وبروفانس ، ومسلمى الأندلس ، ويطلق عليهم اسم Segrel أو Segler أو Seglier أو Seger تبعا للغة ، أو اللهجة ، التى ينطق الاسم فيها .

ولم تستطع السيدة ميكائيليس وهى تبحث عن تفسير وأصول لهذا اللفظ أن تتخيل أنه جاء إلينا من اللغة العربية ، وحصرت نفسها فى نطاق البحث عن أصول رومانية له ، فى كلمة تشبهه صوتيا ، وتلتقى معه معنى على نحو ما . وبدل أن تختار الكلمة البروفنسالية Segre بمعنى تابع وهى تساوى الإسبانية Seguir ، اختارت الصورة الفرنسية Segle ، أو Segre بمعنى قرن من الزمان ، وهى فى الأسبانية Siglo وافترضت بأن لفظ Segrel يعنى علمانى وهو فى الإسبانية Seculai ، اعتمادا على الحياة العابثة التى كان يحياها هؤلاء الشعراء الجوالون ، وتجئ فى أقصى الطرف المقابل من حياة رجال الدين ، أو التى يفترض أنها كذلك .

كانت ضوضاء كلمة Segle السراب الذى خدع الباحثة ، لأن لفظ Secular بمعنى علمانى لا يعبر بدقة عن طراز الحياة الاجتماعية التى كان يحياها الزجال Segrel وإنما هى كلمة مبهمة المعنى يمكن أن تنطبق على كل ما ليس برهبانية .

وعلى النقيض ، إذا لجأنا إلى البحث عن أصل الكلمة فى اللغة العربية فسوف نقع لا على اللفظ الذى يهدى إليها بصوتياته فحسب ، وإنما أيضا بمعناه الدقيق المحدد والمخصص ، وهذا اللفظ هو : « زجال» العربية الأندلسية ، والذى نلتقى به فى كل خطوة عند المؤلفين العرب الذين يتحدثون عن الشعر الشعبى ، يقول ابن قزمان مثلا :

لش عار عندك يا كاتب المآثر
أنا نكون وشّاح وزجال وشاعر
وأديب وكاتب وعندى نوادر[1]
ونكون ذائع بحال مشط أقرع ؟

أى أن معنى زجال شاعر أو مغن يؤلف الأزجال والأغانى من اللون الشعبى الأندلسى .

وهذه الأزجال تتألف — كما نعرف — طبقا للنظام الذى ابتدعه الأندلسيون فى القرن العاشر الميلادى من أدوار ويتألف

---

(١) ديوان ابن قزمان ، جـ١ ، الزجل السابع ، الدور السابع عشر ، تحقيق إميليو غرسية غومث ، مدريد ١٩٧٢

الدور من مركز وأغصان وقفل ، وعلينا أن نعود إلى النموذج الأندلسى الأصيل لتفسير هذا الانتقال .

أطلق اللفظ العربى « زجال » فى الأندلس على الشاعر أو المغنى الذى يوقف نفسه على هذا الفن الشعرى الموسيقى ، والشعبى منه بخاصة ، وكان لونا من الأدب يتمتع بشعبية واسعة فى القرن الثالث عشر الميلادى وبلغ عددهم قدرا كبيرا يتجاوز الحصر ويصف المؤرخون هؤلاء الزجالين الأندلسيين ، على نحو ما نجد فى وصف segreles الذين يعيشون فى إسبانيا المسيحية أناس بوهيميون ، يؤلفون الأغانى للسادة الأغنياء ، وللأمراء والملوك وغيرهم ويتلقون مقابل مدائحهم نقودا أو ملابس أو أشياءأخرى،ويذكرهم ابن سعيد المغربى فى كتابه المغرب فى حلى المغرب فى فصل خاص بهم تحت عنوان : أهداب،فهم أناس مبتذلون ، يؤلفون أزجالا بهجة ، وغير محتشمة أحيانا ، أى أن الزجال الأندلسى ليس إلا طرازا شبيها تماما بما عليه segrel فى أسبانيا المسيحية وهو الذى حاولت السيدة ميكائيليس أن تدرسه .

وإذن فمعنى اللفظين segrel الرومانثية وزجال العربية ، واحد وإذا كان ثمة اختلاف بسيط بينهما فرده إلى اختلاف التقدير الإجتماعى الذى كان يستحقه كل أحد منهما فى الشعب الذى ينتمى إليه .

هل يمكن القول أن لفظ segrel الرومانثى مأخوذمن لفظ«زجال»العربى؟ذلك ما سأحاول الإجابة عنه ، وأبدأ بالحرف الأول من كلمة«زجال»وهو حرف الزاى.

مع الرهلة الأولى يبدو لجمهرة المثقفين أن من النادر جدا أن يصبح حرف الزاى العربى حرف S اللاتينى عندما تنتقل الكلمة التى تحمله إلى اللغة القشتالية[1] لأن العادة جرت أن يستبدل بحرف Z وفى أحايين قليلة بحرف Ç مثل كلمة زمرة Zambra ، والزيتون açeitun غير أن هذا الشذوذ الظاهرى يمكن تفسيره ، فيما أرى ، بأن كلمة زجال لم تنتقل من العربية إلى القشتالية مباشرة ، وإنما عن طريق لهجة رومانثية أخرى ، تصبح فيها الزاى العربية حرف S اللاتينى ، من البرتغالية مثلا ، أو القطلونية ، أو البروفنسالية ، ويرى مينيندیث إى بلايو فى الجزء الثانى من أعماله المختارة ، أن

---

(١) قشتالة إحدى مقاطعات الأندلس المسيحية ، وتقع فى وسط شماله ، وقد اضطلعت بالدور الأكبر فى الحرب ضد المسلمين ، وبعد انتصارهم النهائى أصبحت لهجة مقاطعتهم هى اللغة الرسمية ، وإليها تنسب فيقال القشتالية ، أى الإسبانية . (المترجم) .

لفظ segrel لم يكن موجودا فى النصوص القشتالية الوسيطة ، وإنما فى أغانى جليقية وبروفانس .

والحرف الثانى الجيم ، وهو حرف عربى له تاريخ طويل ، ولم يستقر نطقه على قاعدة واحدة ، فهو يعادل حرف J الفرنسى فى مثل كلمة Jaune تارة ، وحرف G فى مثل ga, go, gu فى اللغة الإسبانية تارة أخرى ، وهو اختلاف يعود إلى زمن بعيد، وثمة أسماء انتقلت إلى اللغة العربية من لغات أخرى، وبين أصواتها حرف G فى صورته الأخيرة هذه ، وأصبح فى العربية جيما مثل كلمات Galicia أصبحت جليقية ، وTagus وpurgos و Galeno ، مما يوحى بأن حرف الجيم فى صورته العربية يعادل مقابله G اللاتينى ، عندما تتلوه الحركات a, o, u

وبعد ذلك لوحظ أنه فى نطاق البلد الواحد الذى يتحدث العربية يختلف نطق الجيم من منطقه إلى أخرى فبعض المناطق تنطقها شديدة ، مثل ga, go, gu ، وبعضها الآخر ينطقها معطشة ، مثل حرف G فى الكلمة الإيطالية giorno . ويقول المستشرق الإيطالى نللينو إن سكان القاهرة وما حولها ، وبعض سكان الإسكندرية الأخرى ، وهى : seglier و segrier والفيوم ، ينطقون الجيم شديدة ، على حين أن بقية سكان مصر ينطقونها معطشة مثل حرف J فى اللغة الفرنسية[5] وليس من المستغرب إذن أن بعض الكلمات العربية فى إسبانيا فى العصور الوسطى ، والتى تحتوى على حرف الجيم ، انتقلت هذه إلى اللغة الرومانثية الإسبانية جيما غير معطشة، وأصبح يمثلها حرف G ، حين تتلوه الحركات a, g, u ، مثل : جلبانة galbana ، وجلنجة galanga ، وجروف garrufo ، وغيرها .

هذه الظاهرة إذن عادية فى الانتقال الكتابى .

وفيما يتصل بزيادة حرف R بين حرف G وحرف L لتصبح الكلمة segerel ، فإن مثل هذه الظاهرة شائع عند انتقال الألفاظ العربية إلى اللغة القشتالية كما فى : جبل طارق Gibraltar ومثلها ألفاظ trufa, motril, graznar, droga وكلمات أخرى .

نملك الآن كل البراهين البنائية والصوتية التى يمكن أن تهدينا إلى الأصل الذى اشتقت منه الكلمة التى ننطقها segrel ، وبقية صورها فى اللغات الرومانثية

---

(5) C.A. Nallino, L'arabo parlato in Egitto, pag. 2.

مشتقة على التأكيد من الأصل نفسه ، وفيما يتصل بالكلمة segrel البروفنسالية يمكن أن نقول إنها لم تؤخذ مباشرة من seglier الجليقية ، ولا من الاسم العربى « زجال» وإنما من المصدر نفسه « زجل » واشتقت منه على النحو التالى ، طبقا لقواعد النحو البروفنسالى : ségel - ier ، وفيها ضاعت الثانية ، فأصبحت seglier ، وعلى أى حال فنحن دائما ، فى نهاية المطاف نصل إلى الأصل الأندلسى ، وننتهى بالكلمة عند أصولها العربية .

بقى أن نشير إلى أن دخول هذه الكلمة فى اللغات الرومانثية يحمل معنى كبيرا فهو يؤكد حجم التأثير الذى مارسته الأغانى الأندلسية على الأغانى فى أوربا ، وبالتالى فى الموسيقا نفسها ، وفى شكل الشعر نفسه ، وجاء فى صورة الزجل الأندلسى وهو أمر تأكد لنا تاريخيا عبر طرق أخرى.

إن الزجال segrel مغن شعبى من طبقة ثانوية إلى حدما ، وهو يدفع إلى خاطرنا بطراز آخر من الشعراء، كان شائعاً فى أوربا ، واحتل مكانة أسمى من الزجال ، وهو :

* **التروبادور** Trovador :

هل من الممكن أن تكون كلمة تروبادور Trovador ذات أصل عربى ؟

ولم لا ؟ . لقد أصبح الآن واضحاً ، وثابتاً، أن أغانى شعراء التروبادور الأولين كانت تقليداً بينا للأزجال الغنائية الأندلسية . وسوف تصيبنا الدهشة ، وتستولى علينا الغرابة، حين يتبين لنا أننا أخذنا من اللغة العربية اللقب الذى نطلقه على مؤلفى هذه الأغانى ومنشديها . والبحث عن أصل الكلمة ، إذا جمعنا المادة التى ندرك بوضوح أنها تحمل تياراً ظاهراً من التأثير ، ورتبناها ، سوف يهدينا إلى الحق ، ويعصمنا من التيه ، ويجنبنا الشذوذ ، ويصبح عملنا دليلا على الفطنة العلمية ، لأن الخطأ يجىء حين يصبح الأمر مغامرة ، نمضى معها إلى الغاية دون تحديد الوجهة أو المنهج ، أو نندفع فى اتجاهات مفتعلة، نحاول اكتشاف السراب الخادع الذى تقودنا إليه الظواهر السطحية للصوتيات وحدها .

من بين الدراسات التى قام بها العلماء المتخصصون فى الدراسات الرومانية ، كان الاتجاه الأكثر جدية فيما توصلوا إليه عن أصل كلمة trovador يحمل الغموض نفسه الذى التقينا به ونحن ندرس أصل كلمة segrel ، إذ لجئوا إلى لفظ لاتينى تشبه أصواته أصوات اللفظ الذى معنا

---

(١) لمعرفة دور هؤلاء الشعراء وحقيقتهم تفصيلا ، يمكن العودة إلى كتابنا : ملحمة السيد ، الفصل الخاص بالشاعر الجوال ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ (المترجم)

ولكنهما بعيدان معنى للغاية ، والصلة بينهما الموسيقا، وفى القرن العاشر الميلادى استخدم الخوارزمى كلمة « مطرب » مرادفة لمعنى مؤلف أغان، أى فى معنى trovador أو trovero ، وأن أطرب تعنى : عزف الموسيقا أو غنى .

والطرب مصدر طرب يعنى الغناء، وهذه الكلمة التى ضبط حرفها الأول ، وهو الطاء ،بالفتح كانت تنطق واقعاً فى القشتالية بالضم ،بتأثير هذا الحرف الساكن الأول ،لأنه صوت إطباق مفتوح تلته الراء ، فأصبحت torob ، وحتى بدون صوت الإطباق ، ودون حرف الراء ، فان الضمة o قد تخلف الفتحة a فى الكلمات العربية التى أخذت طريقها إلى اللغة القشتالية ، مثل حق أصبحت Hoque ، والخفيفة أصبحت aljofifa ، وطبق أصبحت Tabuco .

وما يحدث من ضم نتيجة تجاور الراء يمكن أن نجد له مثلا فى الكلمات العربية التالية : فلفظ صحراء أصبح فى البرتغالية Safora [1] ، وفى الألفاظ العربية التى دخلت القشتالية كلمة شراب أصبحت xarope ، والكراوية أصبحت alcarovea ، وبتأثير الضاد أحياناً فأصبحت محاضرة mahadora ، وأدّب أصبحت adobe وغيرها .

وعامية أهل الأندلس ، ولهجات المغرب، فى مثل الكلمات التى أشرنا إليها ينبر فيها المقطع الأخير ، وكلمة طرب أصبحت — على نحو ما أشرنا — torob ، ومع فقد الحركة الأولى غير المنبررة تصبح طرب trob ، وتعنى غناء .

ومن السهل أن نلحظ أن لفظ torv (aire) و trov (ador), [2] ، بمعنى مغن ، ومؤلف أغان ، قد اشتقت من كلمة trob (o) أو trov (a) ، بمعنى غناء وأغنية، وهو أمر ترتضيه القواعد الصرفية ، وتؤكده معانى الكلمات ، وترجمه الألمان على نحو أكثر دقة بكلمة Minne Singer

متى وأين ظهرت ألفاظ trobo و trova و trovero و trovador فى اللغات الرومانثية ؟ .

ليس بوسعى أن أحدد هذا ، ولكنى لا أستبعد أن تكون ظهرت فى الرومانثية التى كانت تتكلم فى الأندلس الإسلامى ، ففيها توجد صفات تنتهى بحروف air ، لا فى الكلمات المشتقة من أصول لاتينية

---

(١) كان حرف F ينطق هاء فى لهجات شبة جزيرة إيبيريا الرومانثية على امتداد العصر الوسيط .
(٢) حرف B و V فى اللغة الأسبانية متساويان صوتا .

فحسب، وإنما فى الكلمات التى انتقلت إليها من العربية أيضاً ، فلفظ فرانHornair مأخوذة من فرن Horno وسباط Zapatair بمعنى صانع الأحذية مأخوذة من Zapato ، وجواب Chauabair من جواب ، بمعنى سفيه عند رد السؤال ، و Chormair بمعنى مخطىء من لفظ جُرم العربية ، وفندق fondacair من فندق fonda ، وغيرها كثير . ومن ثم يمكن القول أن لفظ trovair تشكل فى الأندلس نفسه ، وحتى لفظ trovador أخذ صورته هذه هنا ، لأن النهاية dor كانت شائعة فى رومانثية الأندلس ، وحتى استخدمت فى الألفاظ الرومانثية التى انتقلت إلى العربية ، وقد أورد ابن سعيد فى كتابه المغرب فى حلى المغرب اسم زجال من بلنسية ، وجمع له بين لقبين : العربى وترجمته الرومانثية ، وهى تنتهى بالأحرف dor ، وهو : أبو زيد الحداد البكّازور[1] ، فهذه الكلمة الأخيرة لفظ رومانثى صورته batedor ، وقد أورد له ابن سعيد المغربى زجلا فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » ، جـ ٢ ص ٣٤١ ، كما أن اللقب الذى أطلقه الأندلسيون على الذريق دى بيبار Rodrigo de Vivar هو السيد القنبيطور El Cid Cambeador وهو لفظ لا أشك فى أنه ينتمى إلى عامية أهل الأندلس ، بمعنى الملك ، أو السيد ، الذى ليس له موطن ثابت ، وإنما يمضى من واد Campo إلى آخر[2] .

وكان فى بلنسية الإسلامية شخصيات تحمل ألقاباً أخذت من السيد القنبيطور مثل : ابن السيد بونه Bono ، وهذه الكلمة الأخيرة فى صورتها الرومانثية . وتعنى « الصالح »[3] .

ولم يبق من هذه الرومانثية العامية الأندلسية نصوص يمكن أن نعتمد عليها ، إلا ما نقع عليه من إشارات عابرة ، وكلمات متناثرة ، يشير إليها المؤلفون العرب عرضاً ، ومن ثم لا يمكن القول بأننا نملك وثائق حاسمة تهدينا يقيناً إلى أصول هذه الكلمات : trova و trovair وغيرها ، ولا يزال الشك قائماً حول المكان الذى أخذت فيه شكلها النهائى ، هل هو الأندلس أم قشتالة ، أم البرتغال ، أم بروفانس ، أم

---

(١) هكذا أوردها أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ، وفى ضوء صورة اللقب الرومانثية أعتقد أن فى الأمر تصحيفا وأن صحة اللقب البتادور (المترجم)

(٢) درسنا هذه الشخصية ولقبها ، وترجمنا الملحمة الخاصة بها فى كتابنا : ملحمة السيد ، دراسة مقارنة دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٣ م . (المترجم)

(٣) أورد الكاتب هذه الفقرة فى الهامش ، وآثرت أن أضمها فى النص ، كما أنه جردها من ذكر الأسماء العربية وأتيت بها تكملة للفائدة . (المترجم) .

في مكان آخر نجهله ، ولكن مهما يكن البلد الذى ظهرت هذه الكلمة فى لهجته الرومانثية ، فليس ثمة شك فى أن trob (trova أو trobo) بمعنى غناء أو طرب ، و trovair و trovador بمعنى مغن أو مطرب قد اشتقت من لفظة طرب العربية .

وهذا الأصل العربى ، شأنه فى ذلك شأن زجال أصل segrel ، له صلة معنى وثيقة بالكلمة الرومانثية ، وبينهما قرابة صوتية واضحة ، ويمكن القول إنهما شقيقان من الأسرة نفسها ، ومصدرهما واحد ، وكلاهما تؤكد الأخرى .

*** دستان** Traste :

ما أكثر أسماء الآلات الموسيقية التى انتقلت من العربية إلى الرومانثية ، وبخاصة أسماء الآلات ذات الأوتار ، مثل العود Laúd ، والرباب rabel ، وغيرها .

فليس غريباً إذن أن تكون كلمة traste ذات أصل عربى ، ولم يبحث أحد من قبل عن أصلها فيما أعلم .

ما الدستان ؟ إنها النتوءات التى توضع فى سارية الآلات الموسيقية ذات الأوتار ، لضبط الإيقاع المتفاوت الطبقات . ونحن نطلق عليها اسم traste ، والعرب يسمونها دستان ، واللفظان traste و dastén لهما المعنى نفسه .

هل يمكن صوتياً تفسير الصلة بينهما ، وأن الأولى ليست إلا الثانية ؟ . ذلك ما سأحاوله .

فى المقام الأول نلتقى بتغيير النبر ، فلفظ dastén أصبح dásten ، وهو أمر شائع فى عامية أهل الأندلس ، مثل mita أصبحت mitá ، وكلمة حافظ hafid أصبحت hafid ، وغيرها كثير ، وبخاصة فى الكلمات المتشابهة المقاطع ، والتى تنتهى بحرف n ، فهم يقولون Abderrame بدلا من Abderramán ، و Zulema بدلا من Soleimán ، وفيهما نلحظ تغيير النبر ، وسقوط النون الأخيرة .

وإذا سرنا فى طريقنا هذا فسوف ننطق dastén فى صورة daste ، وإبدال الدال العربية تاء ليس ظاهرة نادرة فى اللهجة الرومانثية ، وإنما يعترضنا فى أحايين كثيرة ، مثلا « دار الصناعة » أصبحت atarazana وزبادة أصبحت civata ، والمورد أصبحت almuerta ، والندبة أصبحت anuteba ، وغيرها . وفى ضوء هذا التغيير أخذت كلمة daste صورة taste ، ونلتقى بها على هذا النحو فى الرومانثية الإيطالية tasto و tasti ، ولهما المعنى نفسه .

أما حرف **R** الزائد فهو إضافة طارئة، ومتوقعة ، فى القشتالية والبرتغالية ، و هذه الأخيرة أعتقد أن الكلمة تستخدم فى صورتيها ، مع حرف R وبدونه .

فكلمة traste مشتقة إذن من كلمة دستان التى عرضت لها ، والصلة الاشتقاقية والمعنوية ، والتفسير الصوتى ، يبرران هذا التفسير ، ويجعلانه مشروعاً .

*** دست بند** Zaraband :

يفترض العلماء للكلمة الإسبانية أصلين اشتقت منهما : سرايند Sarayand بمعنى غناء أو مغنى ، أو سربند serbend .وفيما يتصل باللفظ الأول يمكن القول أن التشابه بينهما فى المعنى بعيد ، ولا يمكن تفسير الصلة الصوتية على نحو عادى أو فطن . وبينما يقدم اللفظ الثانى للوهلة الأولى عددا من المشابهات الصوتية ، فان المعنى فيهما مختلف ، ذلك لأن كلمة سربند serbend بالكسر ، أو سربند saraband بالفتح تعنى طبقاً للمعاجم الفارسية : عصابة ، أو منديل ، مما تلف به السيدات رءوسهن (١) .

أما كلمة zarbanda الإسبانية فمعناها فى رأى كل علماء الموسيقا الذين اهتموا بمتابعة هذا اللفظ : لون من الرقص كان فى إسبانيا ، ومنها عبر إلى بقية بلاد أوربا ويصفها بعضهم بأنها رقص وقور جاد يتم بمصاحبة الموسيقا ، ويراه آخرون رقصا مثيرا وفاجرا .

هل يوجد لفظ عربى يعتمد على أسس عقلية ، يمكن أن يفسر لنا أصل كلمة zarabanda

نعم ، يوجد نص لإخوان الصفا ، وهى جماعة إسلامية تعود إلى القرن العاشر الميلادى ، إشارة إلى أنواع الموسيقا التى تعزف فى المآدب والحفلات والمهرجانات وغيرها ، وبعد أن عدد أنواعها ذكر : « وجاء وقت الرقص والدست بند dastaband» .

ما الدست بند dastaband ؟ طبقاً لكل من فريتاج Freytag ولين Lane فى معجميهما العربيين ، هو صوت فارسى يتكون من دست dasta بمعنى صلة ، وبند band بمعنى لعبة أو تسلية ، وفيها يرقص الأفراد فى شكل حلقة ، وقد أمسكوا بعضهم بأيدى بعض ، ويبدو أنها كانت عادة متبعة فى حفلات فارس القومية .

فلفظ Dastaband و zarabanda, كلاهما يعنى الرقص ، أى أن ثمة صلة قوية بين معناهما ، فهل يمكن القول بأن الثانية تطور صوتى للأولى؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه.

---

(١) رغم أن الكلمة فارسية ، فإن الباحث رآها تأثيرا عربيا ، لأنها دخلت العربية أولا ، ثم هاجرت إلى الأندلس ومنها إلى أوروبا ، (المترجم)

المقام الأول نلحظ أن حرفى St كانت تنطق فى الأندلس بما يساوى حرف Z فكلمة castrum اللاتينية بمعنى قصر أصبحت alcàzar ، وكلمة strata بمعنى صراط أصبحت Cirat ، وعلى هذا النحو كان المسلمون فى إسبانيا ينطقون كثيرا من الألفاظ ، فمثلا Ecija أصبحت أستيجه Astiga ، و Baza أصبحت بسطة Basti و. Cazlona أصبحت قسطلون Castulone و Zaragoza أصبحت سرقسطة Cerragousta ومثلها Zaguan بمعنى اسطوان و Mozarabe بمعنى مستعرب وغيرها .

وفى ضوء هذا الواقع يمكن القول أن كلمة databand تنطق daztaband ثم حدث فيها تقديم وتأخير على نحو ما حدث فى كلمات albahaca وأصلها الحبق alhabaca ، و barato أصلها rabato و. rachola أصلها chorala وهكذا .

كذلك فان حرف d ، وهو صوت احتكاكى قد يبدل فى الإسبانية r وهو صوت احتكاكى أيضاً ، ولهذا تنطق بعض اللهجات الإسبانية ، كما فى مرسية مثلا ، كلمات « ميدالية medalla» و « لحن موسيقى seguidilla » على النحو التالى : seguirilla, meralla وغيرها كثير .

وفى هذه الحالة الخاصة يمكن أن يؤثر القياس على الكلمات الأخرى ذات الأصل العربى ، مثل : zaragata بمعنى مشاجرة ، و zaragüelles بمعنى سراويل و zaratàn بمعنى سرطان ، و zaranda وغيرها . ولهذا تنطق الكلمة التى معنا zarabanda .

ولو أن الطريق إلى تفسير أصل هذه الكلمة الرومانثية واشتقاقها من الأصل الفارسى كان طويلا جداً ، ولكنه يحمل معه المزيد من الثقة والاطمئنان ، حيث يلتقى التشابه بين اللفظين صوتا ومعنى .

* **المشتق** Cornamuza أو Cornamusa :

وهى كلمة مؤلفة من عنصرين : Corna و muza ، والأول من أصل لاتينى على التأكيد ، وأصبح يطلق على الآلات الموسيقية فى كل اللغات الرومانثية ، أما الثانى ، وهو muza ، فلا أعرف من تعرض لتفسيره مطلقاً .

من أين جاءت هذه الكلمة : muza أو musa وأحياناً تنطق musette ؟ .

فى مفاتيح العلوم للخوارزمى ، ص ٣٧ ، يقول : المشتق mustac آلة موسيقية صينية ، تتكون من عدة مزامير ، أو مواسير ، موصولة ، وتسمى فى اللغة الفارسية بيش مشته bisa musta . أى أنه وجد فى الصين قبل القرن العاشر الميلادى آلة موسيقية ، يمكن أن نفهم من الوصف المختصر الذى نقله لنا مؤلف عربى أنها من فصيلة La gaita[1]

---

(١) آلة موسيقية شائعة فى جليقية ، شمال غربى إسبانيا (المترجم)

تشبه La cornamusa ، وتسمى فى الصينية مشتك mustac ، وفى الفارسية musta ، أما bisa فهى لاحقة لوضع فى اللغة الفارسية قبل كثير من الكلمات لتعطى معنى طيب ، أو حسن ، أو محمود .

و musta هذه ، عربية وفارسية يجب أن تنطق فى بعض اللهجات العربية ، وخاصة عامية أهل الأندلس muza أو musa ، على نحو ما رأينا من قبل ، حيث يصبح الحرفان St فى كثير من الألفاظ ما يساوى حرف Z طبقاً للهجة التى تنطق فيها ، و musta و muza يتفقان فى المعنى مع تفسير صوتى بسيط ، ذكرناه فيما سلف .

وهذا التوافق فى المعنى له قيمة تاريخية أيضاً ، لأنه يخبرنا أن آلة موسيقية من نوع La gaita الحليقية كانت تستخدم من قديم جدا فى القارة الأسيوية ، وفى الصين بالذات ، ومنها عن طريق الفرس ثم العرب ، جاءنا اسمها ، وربما الآلة نفسها أيضاً .

لقد دخلت أوربا خلال العصر الوسيط ألفاظ عربية ذات دلالة بالغة ، على نحو ما أشرنا ، ومن ثم لايجوز أن يدهشنا دخول تقنيات فن الشعر ، والموسيقا ، والأغانى العربية . وأظن أنه توجد أسماء تقنية للموسيقا الأوربية الوسيطة ليست إلا ترجمة موغلة فى العامية ، للتقنيات المثقفة لفن الموسيقا العربى[1] . ويعرف العلماء جيداً أن مترجمى الكتب العربية فى العصور الوسطى لم يكونوا دائماً على معرفة جيدة وواعية بتقنية العارم والفنون فى الكتب التى يتعاملون معها ، واعتادوا أن يضفوا على الألفاظ التقنية الخاصة معانى عادية مما تستخدمه العامة فى لهجاتها .

* **حركة** motete (أو motetus أو motet) :

وهى كلمة حاولت أن أبحث عن أصلها اللغوى ، ووجدت بعضهم يشتقها من اللفظ الفرنسى mot وهو استنتاج مبتذل ، وآخرون يشتقونها من اللفظ اللاتينى motus وهذا هو الحق فى رأيى ، ولكن ، بأى معنى ؟ .

إن لفظ Motus هو ترجمة عامية لكلمة « حركة » العربية ، وفى معجم بدرو القاعة ، وهو أول معجم ألف يتناول العربية والإسبانية ، فى آخر القرن الخامس عشر الميلادى ، نجد أن كلمة « حركة » قد ترجمت إلى اللفظين التاليين : motus و movimiento على التوالى .

وهذا الفهم لكلمة motus هو العادى والعامى كما قلنا ، وليس له أية صلة بالتقنية الموسيقية ، ولكن « مفاتيح العلوم » للخوارزمى

---

(١) انظر :

Henry George Farmer : The arabian influence en musical theory, London 1925.

«يفسر حرّك معاً» بأنه يعزف على عودين معاً ، ويفسر دوزى فى ملحقه للمعاجم العربية الفعل « حرك » بأنه يعزف على كل أوتار العود ، مستخدماً المضراب بقوة ، وفى وقت واحد .

ونلتقى بالكلمه فى معنى مشابه ، فى نص للمؤرخ الأندلسى ابن حيان ، ونقله عنه المقرى فى « نفح الطيب » ، حيث يذكر من الأغانى « المحركات » فى مقابل « البسيط » ويعنى بها أغانى ذات أصوات محكمة ، أى متعددة النغم ،وهى التى تنتمى إليها موسيقا motetes الأوربية .

وهكذا يمكن أن نفسر أصل هذا الكلمة ومعناها ، عن طريق عمل التقنية العربية ، وبدون ذلك تصبح غير مفهومة . والشىء نفسه يمكن أن يقال عن اللفظ .

* مجرى Conductus :

(لفظ تقنى فى الموسيقا الأوربية الوسيطة)

ثمة لفظ تقنى فى الموسيقا العربية يسمى Conductus ، فماذا يعنى هذا اللفظ ؟ إنه عند من لا يعرف تقنيات الموسيقا يعنى مجرى أو قناة ، أو غيرهما ، ولكنه فى مصطلحات الموسيقا العربية يعنى « تنسيق النوبات فى إطار نغم الأغنية » . وإذن فهما يشتركان فى أنهما « تركيب متناسق متعدد النغم » ، وقد أطلق على مفهومهما فى أوربا اسماً لا تينياً ، هو ترجمة لمعناهما فى العامية العربية ، ويراد به مفهومهما فى مصطلح الموسيقا .

وفيما أرى نلتقى بالظاهرة نفسها فى كلمات أخرى ، فلفظ rondó ترجمة لكلمة « نوبة » العربية ، بمعنى دورة تتم عند النغم ، كما أن كلمة مركز ترجمت إلى estribillo ، تصغير estribo ، وتعنى فى مصطلحات الموشحة الأندلسية البيت الأول ، أو الأبيات الأولى ، فى الموشحة ، وتتفق معه فى قافيته أقفال الموشحة وبخاصة الخرجة refrán ، وهى القفل الأخير ، أى نهاية الموشحة ، وكلمة مركز فى العربية ، و estribo فى الإسبانية ، تعنى بعيداً عن مصطلحات الموشحة — الشىء الذى يعتمد ، أو يرتكز ، أو يستند عليه .

فى ضوء ما سبق يمكن أن نكتشف تياراً هاماً ، يتطلب دراسة جادة لاكتشافه ، والأمثلة التى قدمناها ، وهى ذات معنى لمن يعنون بالدراسات الرومانثية ، تبين إلى أى مدى كانت الصلة بين العربية واللغات الرومانثية ، فيما يتصل بتقنيات الموسيقا وقواعدها ، وأتمنى عليهم أن يصروا على عدم الاستهانة بها .

الدكتور الطاهر أحمد مكى
الأستاذ بكلية دار العلوم